(( استوصوا بالنساء خيرا ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف : <http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب : https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3\_Hje4JaCw

الأولى

في مشهدٍ مهيب ، وموقفٍ عظيم ، ويومٍ مشهود ، في يوم الحج الأكبر ، وعلى صعيد عرفات ، وقف النبي المجتبى ، والرسول المصطفى ، وسيد البشر خطيباً ومعلّماً ، وموصّياً ، ومحذّراً من الكفر ، وسفك الدماء ، واستباحة الأعراض ، وأكل أموال النّاس بالباطل .

ثم جاءت الوصيّة الثمينة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً .

الوصيّة العظيمة التي سبقت القوانين ، والتّشريعات ، والمنظّمات .

وصيةٌ تحمل في طياتها رسالة إلى كلّ زوج ملّكه الله تعالى أمر امرأةٍ ، وجعل له القوامةَ عليها .

وصيّةٌ خاضت في معاني الرّحمة، والمودّة تجاه الزوجة التي جمع الله بينك وبينها على كتاب الله وسنّة رسوله .

استمع إلى نبيك وهو في صعيد عرفات ينادي أصحابه وأمّته : « اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ... » رواه مسلم.

ثم يتبع الوصيّة بالوصيّة فيقول : «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ... » رواه البخاري .

الله أكبر .. أيها الزوج استمع إلى وصية نبيّك وهو يقول : «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» .

وها نحن بعدما أعرض الكثير منّا عن هذه الوصيّة الجامعة ، تفكّكت الأسر ، وظهر العنف الأسري ، وفي كلّ يومٍ تتضاعف نسب الطلاق ، وتعمّ الفرقة والنّفرة في البيوت ، من كان قريباً من العاملين في لجنة إصلاح ذات البين ، ناهيكم عن قضايا المحاكم الشرعية يسمع ما يشيب منه الرأس من الشقاق والفراق ، والكيد والمكر والطلاق بين الأزواج ، ونجحت وسائل الإعلام بجميع صنوفها في شتات البيوت ، وإخراج النساء بسبب وبلا سبب من خدورهن، وسقط الأزواج في عادات مرذولة ، وأعرافٍ سيئة ، وثقافات وافدةٍ فاسدة ، فظهرت الفجوة بين الزوج والزوجة ، وضاعت الحقوق بينهما والله تعالى يقول ﭽ ﮑ ﮒ ﭼ الروم: ٢١

فأين السكن في بيوت كثير من الأزواج اليوم ؟

فالحياة الأسريّة ليست بقضاء وطرٍ، وإنجاب ولدٍ فحسب

الحياة الأسريّة ليست بأن تأمر وتنهى ، وتَرْغَبَ وتَتَمَنَّى ، وتتوعّد وتتهدد .

العلاقة الأسرية ليست أوامر صارمة ، وأحكاماً حازمة .

تعال معي لنعيش مع النبي الحبيب ذو المسؤوليات الجسام ، والهموم الكبرى ، والمشاغل الجمّة ، والعبادات الدائمة من ذكرٍ وصلاة ، وصيامٍ وقيام ليل ، ومع ذلك كلّه كان عظيماً في بيته ، عظيماً في زهده وصبره ، عظيماً في حلمه وكرمه ، عظيماً في تعامله ومعاشرته ، عظيماً في خلقه كلّه .

وهو القائل : «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» رواه البخاري .

قسمةٌ نبويّة كم غفل عنها الكبار قبل الصغار ؟

" وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا "

فتعال معي إلى النبي ، إلى الزوج الرحيم ، إلى القدوة الحسنة، إلى الجليس المؤانس، والناصح الأمين، يمازح أهله في السّراء ، ويواسيهم في الضّراء ، يسمع الشكوى ، ويكفكف الدمعة ، لا يؤذي بلسانه ، ولا يجرح بكلامه ، ما ضرب بيده امرأةً قطُّ ، لا يتصيّد الأخطاء ، ولا يتتبّع العثرات ، ويفخّم الزلاّت ، يتحمّل الهفوة ، ويتغاضى عن الكبوة ، وهو القائل : «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»

رواه مسلم .

استمع إلى عشيرته وحبيبته عائشة < تلك الزوجة التي خلقها الله تعالى ، لتسكن في بيت النبوّة ، وتعيش في كنف رسول ، فتتأسّى بخلقه ، وتحفظ سنّته ، وتنشر أخلاقه، فتشرئب أعناق الصحابة إلى سؤالٍ دقيقٍ في حياة النبي .

ما كان رسول الله يصنع في بيته ؟ فتقول عائشة < الصادقة واصفةً حال رسول الله في بيته :

«كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحّاكا بسّاما»

« كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ: يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ »

رواه أحمد « فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ»رواه مسلم

الله أكبر .. أخلاقٌ وآداب تجلّت فيها مَعَالِمُ الهَدْيِ المحمّدي في الأسرة وتدبيرها وإدارتها .

لم يكن في بيته أميراً ، ولا وزيراً ، ولا ملكاً ، ولا قائداً عسكرياً ، كان في بيته زوجاً ، طيب المعاشرة ، حسن الخلق .

تقول عائشة < كان : «كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحّاكا بسّاما» .

ما أحوجنا يا كرام أن نتمثّل بهذا الخلق في بيوتنا ومع أهلينا ، يطول عجبك من أناسٍ يجود بالكلام الحسن ، والثغر المتبسّم مع أصحابه وخلّانه حتى إذا أغلق بابه ، وخلا بأهله تغيرت شخصيته فلا ترى إلا كآبة المنظر ، وسوء التعامل ، ولغة التأفف ، فقد غابت المودّة والرحمة ، والبشاشة واللطف، ثمّ تأمل معي في قولها <: كان في مهنة أهله، ووالله لا أدري ما هي الخدمة التي كان النبي يقدّمها لزوجة تسكن في حجرةٍ صغيرة المبنى ، حجرةٍ من اللبن ، وجريد النخل، حجرةٍ قليلة الأثاث، خالية المتاع، يقول الحسن البصري ~ دخلت إحدى بيوت النبي في عهد عثمان فتناولت سقفها بيدي ، وعائشة < تقول : « كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ: يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ » ، وهل كانت أمّنا عائشة < بحاجة في بيتها المتواضع إلى إعانةٍ وخدمة ؟

أما كانت حجرتها متقاربة الجدر ، صغيرة المساحة ؟

أما كانت عائشة < تسكن في بيت تتصرّم الشهران بتمامها وما أوقد فيه نارٌ لطعامٍ يصنع ؟

إنّ الجواب عن هذه التساؤلات كلّها أن تعلم رعاك الله، أنّ نبينا ما كان في خدمة أهله ، وخياطة ثوبه ، وخسف نعله ، لكثرة الشغل ، وجهد العمل عند عائشة< ، كلا .. إنما هي المودّة والرحمة ، إنها المواساة، وإشعار الزوجة بالسكن الحقيقي ، والمتاع الأسري ﭽ ﮑ ﮒ ﭼ الروم: ٢١ ولم يقل لتسكنوا معها ، إنّ السعادة الزوجيّة ليست في الجواهر والملابس ، ولا في القصور الفارهة ، والمراكب الفخمة ، بل لقد قدّم لنسائه ألواناً من الحبِّ والعاطفة ، فهذه عائشة < تقول: «كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ (وهو العظم الذي عليه اللحم) وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ» رواه مسلم .

وتقول < كان « يَتَّكِئُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ يَقْرَأُ القُرْآنَ» متفق عليه .

وسابقها في السير على الأقدام ، فسَبَقَتْهُ مرّة ، وسبقها مرّة ، ثم قال لها : ملاطفاً «هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ» . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وصحّحه الألباني .

لقد عاش مع أهله ، عيش المحبّ لهم ، الحريص على سرورهم وإسعادهم ، الصابر على زللهم ونقص عقولهنّ .

تأملوا رعاكم الله في هذه المواقف التي جرت في بيت النبوّة .

يحدّث بها أَنَسٌ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ فِي بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «غَارَتْ أُمُّكُمْ» ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ . رواه البخاري .

بأبي هو وأمّي ، يُقَدِّرُ الطباع ، ويلتمس الأعذار ، ويحسن المعاملة .

وها هم الأحباش يرقصون بالحراب؛ فسمع رسول الله ضوضاء الناس والصبيان، وكان جالسًا فقام ثم قال: ((يا عائشة، تعالي فانظري))، قالت <: "فوضعتُ خدي على منكبه، فجعل يقول: ((عائشة، ما شبعتي؟)) فأقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده!".

هذه طبيعة الأنثى، في رقَّتها وطَبْعِها، تفصح عنها أمنا عائشة < لنتعلم ونتفقَّه ونقدِّر لكل شيءٍ قدره، كما نقدِّر لكل سنٍّ قدره.

ثم تقول <: "ولقد رأيتُه يراوِح بين قدمَيْه"؛ يعني من طول المدة؛ لأنه تركها حتى تشبع في رؤيتها لهؤلاء الذين يرقصون.

وفي رواية في "الصحيحين": "يقوم من أجلي، حتى أكون أنا الذي أنصرف".

وروى النسائيُّ في باب عشرة النساء عن عائشة < قالت : زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالْأُخْرَى فِي حِجْرِهَا، فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، أَوْ قَالَ: «خَزِيرَةً» فَقُلْتُ: كُلِي، فَأَبَتْ فَقُلْتُ: " لَتَأْكُلِي، أَوْ لَأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَأَخَذْتُ مِنَ الْقَصْعَةِ شَيْئًا فَلَطَّخْتُ بِهِ وَجْهَهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا تَسْتَقِيدُ مِنِّي، فَأَخَذَتْ مِنَ الْقَصْعَةِ شَيْئًا فَلَطَّخَتْ بِهِ وَجْهِي، وَرَسُولُ اللهِ يَضْحَكُ " .

كم يا ترى في هذه الصورة من المودّة واللطف العائلي ، والتعامل النبوي ؟

كم في هذه الصورة من إدخال السرور ، ونشر السعادة في أهل بيته ؟ ما أعظم هذا الخلق ؟

وما أطيب التعامل ؟ وما أجمل الأدب ؟

هذا هو رسول الله ، صاحب القلب الكبير ، والخلق العظيم ، والتواضع الجمّ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله

الثانية

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ... » رواه الترمذي وصححه الألباني في الصحيحة 285 .

نحن بحاجةٍ يا رجال أن نراجع أنفسنا ، في تعاملنا مع زوجاتنا وأهل بيتنا ، فاللفظ الحسن ، والكلمة الطيّبة ، والشّكر والثناء ، والاعتراف بالجميل ، وتبادل الهدايا من غير مبالغة ، والمشاركة في الحديث ، والمشاورة في الرأي ، والإنصات الجيّد ، والاعتذار عن الخطأ ، والتجمّل الحسن ، كلّ ذلك طريقٌ للحياة الكريمة ، والسعادة المنشودة ، فليست السعادة ألاَّ توجد في البيت مشكلات، ولا ألاَّ تحصل خلافات واختلافات؛ ولكنَّ الحياة السعيدة: الإيمان بالله، والقيام بما افترض الله، والأخذ بحكم الشرع وأدب الدِّين.

ولينفق ذو سعةٍ من سعته؛ فالكرم يستر العيوب، ويداوي كسر القلوب، وما أُسرت القلوب بشيءٍ أعظم من الإحسان.

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ... » رواه الترمذي وصححه الألباني في الصحيحة 285 .

ذكر ابن كثير ~ في البداية والنهاية موقفاً رائعاً للمهدي قال : حَجَّتِ الْخَيْزُرَانُ مَرَّةً فِي حَيَاةِ الْمَهْدِيِّ فَكَتَبَ: إِلَيْهَا وَهِيَ بِمَكَّةَ يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر: -

نَحْنُ فِي غَايَةِ السُّرُورِ وَلَكِنْ

لَيْسَ إِلَّا بِكُمْ يَتِمُّ السُّرُورُ

عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ يَا أَهْلَ وُدِّي

أَنَّكُمْ غُيَّبٌ وَنَحْنُ حُضُورُ

فَأَجِدُّوا فِي السَّيْرِ بَلْ إِنْ قَدَرْتُمْ

أَنْ تطيروا مع الرياح فطيروا

لك أن تتصور بحجم هذه الكلمات في نفس الزوجة !

فلما وصلت تلك الأبيات إلى الخيزران أجابت، أو أمرت من أجابه:

قَدْ أَتَانَا الَّذِي وَصَفْتَ مِنَ الشَّوْقِ

فَكَدِنْا وَمَا فَعَلْنَا نَطِيرُ

لَيْتَ أَنَّ الرِّيَاحَ كُنَّ يُؤَدِّينَ

إِلَيْكُمْ مَا قَدْ يَكِنُّ الضَّمِيرُ

لَمْ أَزَلْ صَبَّةً فَإِنْ كُنْتَ بَعْدِي

فِي سُرُورٍ فَدَامَ ذَاكَ السُّرُورُ

إنّ الرجولة ليست في القسوة والغلظة، ولا في العنف والشدّة .

إنّ الرجولة والخيريّة تتجلّى في حسن التعامل لأهل البيت، والتودّد لهنّ، وسياسة البيوت بالحكمة والرّحمة

ﭽ ﯢ ﯣﯤ ﭼ النساء: ١٩